مركزية الإنسان في فعل النهضة عند مالك بن نبي

The centrality of human in Renaissance according **to MALEK BENNABI**

https://aif-doi.org/AJHSS/095804

أ.د كمال جحيش*

*جامعة الملك خالد.

الملخص

ترتبط حركة التاريخ في منظور مالك بن نبي[1] بالوضع الذي يتخذه الإنسان في الزمان والمكان، وإن شئت قلت بالموقف الذي يقفه الإنسان من التراب والوقت، و بطبيعة تفاعله مع الفكرة الدينية. حركة التاريخ ليست حركة حتمية تفرض سلطانها على الإنسان في أي وضع، بل إن الإنسان هو الفاعل الأصلي، و التاريخ ما هو إلا استجابة لإرادته.

[1] مالك بن نبي(1905– 1973م)، ولد في قسنطينة ونشأ متنقلا بينها وبين مدينة تبسة، تلقى تعليمه في المدارس الفرنسية، هاجر إلى فرنسا سنة 1925، ثم عاد إلى الجزائر، وفي عام 1930 اتجه إلى فرنسا مرة ثانية، وحاول الانتساب إلى معهد الدراسات الشرقية، ولكنه لم يوفق في ذلك بسبب العراقيل التي كانت تواجه الشباب الجزائري آنذاك في الالتحاق بالمراكز العلمية المرموقة، عندها ولى وجهه شطر الهندسة، فتخرج مهندسا كهربائيا سنة 1935، بقي في باريس إلى أن انتقل إلى القاهرة سنة 1956، وبقي بها إلى حين استقلال الجزائر حيث رجع سنة 1963، وفي الجزائر تولى منصب مدير التعليم العالي في الجزائر، ولكنه استقال سنة 1967 وفضل التفرغ للكتابة في شؤون الأمة وتنظيم الندوات والملتقيات، وأشهرها جميعا ملتقيات الفكر الإسلامي التي استمرت لأكثر من 20 عاما، واستمر في نشاطه إلى أن توفي في 04 شوال 1393 هـ الموافق لـ 31 أكتوبر1973 في الجزائر العاصمة. ترك مالك بن نبي مجموعة هامة من المؤلفات ضمنها أفكاره في النهضة وبناء الحضارة وهي:

1– الظاهرة القرآنية 1946 ، 2– لبيك 1946 وهي رواية ذات طابع فلسفي

3شروط النهضة 1948، 4– وجهة العالم الإسلامي، 5– فكرة الأفرو آسيوية1956

6– فكرة كومنولث إسلامي. 7–مشكلة الثقافة1958، 8– الصراع الفكري في البلاد المستعمرة1959

9– حديث في البناء الجديد 1960 طبع ملحقا بكتاب تأملات، 10–تأملات 1961

11–ميلاد مجتمع 1962، 12 – في مهب المعركة1962، 13 – آفاق جزائرية 1963.

14–مذكرات شاهد القرن الطفل 1965، الطالب 1970، 15–إنتاج المستشرقين 1968.

16–مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي1970، 17–بين الرشاد والتيه 1972.

18–دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، 19–القضايا الكبرى.

20–من أجل التغيير، 21–الإسلام والديمقراطية، 22–معنى المرحلة.

والجدير بالذكر أن مالك بن نبي وضع عنوانا مشتركا لكل كتاباته وهو: مشكلات الحضارة.

ISSN : 2410-1818

في خلال ذلك يتقلب الإنسان من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، وهو في كل هذا يرتقي أحيانا إلى عالم الأفكار[2]، فيميز الأفكار الحية من الميتة، كما ويميز بين الأفكار الميتة وبين الأفكار المميتة، فيتخلص من الأولى ويقدم أسباب المناعة ضد الثانية، ليفسح المجال للأفكار الحية لتؤدي دورها فيكون ذلك مؤذنا بحلول فجر جديد، لكنه أحيانا تغلب عليه الأفكار الميتة فتعطي المبرر لاستدعاء الأفكار المميتة، كلا النوعين من الأفكار تعملان على طمس الأفكار الحية، تعمل الأولى تحت شعار ليس في الإمكان أبدع مما كان، فتكمل الثانية سيمفونية الهزيمة النفسية، فيرتكس وينحدر إلى عالم الأشياء تعويضا، عندها تفقد الفكرة الحية رونقها، ويتأجل بزوغ الفجر إلى حين، لكن الأمل يبقى قائما، إذ بزوغ الفجر الجديد مؤجل فقط، لكنه لابد آت، هذا وعد الله لعباده الذين يفهمون السنن.

ومن هذا المنظور فإن هذه الورقة تهدف إلى تقديم مقاربة حول ما طرحه مالك بن نبي بشأن مركزية الإنسان في فعل النهضة، وعماد هذه المقاربة التأكيد على ثلاثة عناصر نراها أساسية هي مدار الإشكالية التي نروم طرحها، ونرى من المناسب طرح السؤال بشأنها؛ وهي الإنسان والتاريخ، وكيف يتخلص الإنسان من العطالة المكبلة ليصل إلى الفعالية المنطلقة، وينخرط مجددا في فعل حضاري يصل بالأمة إلى أرقى مراتب الخيرية.

فكيف ينبغي أن يفهم التاريخ؟ وكيف يستعيد الإنسان موقعه فيه؟ وما هي الشروط التي يتوصل بها الإنسان إلى الانخراط في الفعل الحضاري؟

هذه بعض الأسئلة التي نروم الإجابة عنها من خلال هذه الورقة، آملين من خلالها فحص بعض الركائز الأساسية التي تقوم عليها رؤية مالك بن نبي للإنسان ودوره في فعل النهضة بحسب ما يقتضيه المقام.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي- الإنسان- الحضارة- التاريخ.

Abstract

From MALEK BENNABI' perspective, the movement of history is related to the position that man takes in time and space, and if you wish, you will say the position that the person stands in terms of dust and time, and the nature of his interaction with the religious idea. The movement of history is not an imperative movement that imposes its authority on man in any situation. Rather, man is the original subject, and history is nothing but a response to his will. Meanwhile, human transforms from state to state, and from a status to a status. In all this, he sometimes rises to the realm of thoughts. He distinguishes the living thoughts from the dead thoughts, and the dead thoughts from deadly ones. He gets rid of the first and provides the causes of immunity against the second, to make room for living thoughts to play their role, so that will herald the arrival of a new dawn. But he is sometimes overcome by dead

[2] تناول مالك بن نبي هذه القضية في كتابه" مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي".

ISSN : 2410-1818

thoughts, giving the excuse to invoke deadly thoughts.

Both types of thoughts seek to obscure living thoughts. The first works under the slogan " The best of all possible worlds" . The second complements the symphony of psychological defeat. So he recedes and descends into the world of things. Then the living thought loses its elegance, and the break of dawn is postponed for a while, but hope remains. If the break of the new dawn is postponed, it will be coming. This is Allah 'promise to His servants who understand the Sunnah.

From this point of view, this paper aims to present an approach about what to MALEK BENNABI proposed regarding the centrality of human in Renaissance. The chief support of this approach is the emphasis on three elements that we consider essential. It is the focus of the problem that we want to pose, and we think it is appropriate to ask the question about it. It is the human being and history, and how a person gets rid of the cuffed inertia to reach the ultimate activity, and engage again in a civilized act that brings the nation to the highest ranks of charity. How should human understand history? How can a person regain his position in it? What are the conditions that human reaches to engage in civilized action? These are some of the questions that we would like to answer through this paper. Through it, we hope to examine some of the main pillars upon which Malek BENNABI vision of human vision of is based and his role in renaissance as may be required.

Keywords: Malek BENNABI- human- civilization- history

تمهيد:

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، سر تأخر العرب والمسلمين، هذه عناوين كتب صدرت من مصلحين مسلمين، وهناك كثير غيرها، اختلفت عناوينها وتلاقت في السؤال الذي طرحته، حاولت جميعها فك السر الذي جعل المسلمين يتراجعون، ويدخلون في حكم غيرهم، وجميعها قدمت ما رأته ضروريا لنهضتهم، اختلفت الإجابات وتنوعت المشاريع، وكان من أبرز هذه المشاريع في تقديرنا ما خطه مالك بن نبي. رأى مالك أن العلة تكمن في الإنسان نفسه، فالإنسان هو منطلق الفعل النهضوي، وهو الغاية المقصودة، وقد يسبق إلى الذهن أن ليس هناك ما يميز مالك بن نبي عن غيره، إذ أن موقع الإنسان أساسي في كل مشاريع النهضة، وهذا أمر لا جدال فيه، لكنه عند مالك بن نبي ليس أساسيا وحسب، بل إنه مركزي بالأساس، الحضارة عند بن نبي لا يشيد بناؤها بتكديس المنتجات، وإنما بحل المشكلات الثلاثة المرتبطة بعناصرها[3]، لكن الإنسان هو المركز وهو أساس المعادلة، عندما يصوغ بن نبي معادلته في الحضارة (الحضارة= الإنسان + التراب+

[3] مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق: 1406هـ/ 1986م، ص45.

ISSN : 2410-1818

الوقت) يضع الإنسان في الصدارة، إيذانا بأنه الأصل في كل فعل حضاري، باقي العوامل حضورها مطلوب بالتأكيد، لكنها تأخذ قيمتها من الإنسان، فهو الذي يعطي العنصرين الآخرين معناهما.

لم يشغل مالك بن نبي نفسه بالتحشيد السياسي للجماهير كما فعل الأفغاني ولا بتجديد علم الكلام كما فعل محمد عبده، ولا بإصلاح الفقه وأصوله كما يفعل بعضهم الآن، ولا بحث في العلوم الشرعية على طريقة بعض معاصريه، ولا نظر إليها على أنها المسؤولة عن وضع المسلمين كما فعل بعضهم الآخر، هذا مع اعترافه بفضل محمد عبده والأفغاني وغيرهما، إلا أن مشكلة المسلمين عند مالك بن نبي ليست في تخلف هذه العلوم، إذ في نظره لا توصف بهذا الوصف، فعلوم الشريعة تتطور وتنتقل من حال إلى حال بتطور الحياة، فهي استجابة لها، إذ العلوم صنعة من صنائع العمران[4] كما قال ابن خلدون[5]، وعليه لا يمكن الحديث عن إصلاح جانب محدد من جوانب الحياة بمعزل عن الجوانب الأخرى، ذلك أن جوانب الحياة المختلفة متداخلة في ما بينها، وأي خلل يلحق إحداها يرتد أثره على الباقي، من هنا صرف مالك نبي جهده لبحث مشكلة الحضارة، وهي في نظره مشكلة الإنسان وليست مشكلة عقيدة أو دين[6]، إذ الإنسان هو المحرك وعليه مدار الحياة.

المبحث الأول: الإنسان والحضارة

المطلب الأول: الإنسان عند مالك بن نبي

لا يتحدث مالك بن نبي عن مفهوم الإنسان بوصفه نوعا، بل بوصفه كائنا اجتماعيا يتحرك في التاريخ، إذ لا ينفصل حديث بن نبي عن الإنسان بوصفه فردا له قيمته الذاتية عن الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا، لكنه في جميع أحواله لا يكون له مكان في التاريخ إلا في سياق اجتماعي، والمجتمع هو

---

[4] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، الفصل الثاني من الباب السادس ، الكتاب الأول.

[5] عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي الإشبيلي(732– 808هـ)، مؤسس علم العمران، اشتهر بكتابه في التاريخ" كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، خاصة المقدمة التي اشتملت على قواعد العلم الذي أسسه، كان لابن خلدن تأثير بالغ في مفكري الإسلام في العصر الحديث، وكان لابن نبي حظه من هذا، حيث أفاد منه في تأسيس نظريته في الحضارة.

[6] يقول بن نبي: " وعلم الكلام لا يتصل في الواقع بمشكلة النفس، إلا في ميدان العقيدة أو المبدأ، والمسلم حتى مسلم ما بعد الموحدين ظل مؤمنا، وبعبارة أدق ظل مؤمنا متدينا، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي، فأصبحت جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي. وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة" وجهة العالم الإسلامي ص 53، 54.

ISSN : 2410-1818

في حقيقته من صناعة التاريخ، وغاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، وهو ما نطلق عليه اسم الحضارة[7]، بهذه الصورة يصبح مصير الإنسان مرتبطا بمدى وقيمة ما ينجزه من فعل في التاريخ يسمى الحضارة.

طبقا لهذا يتحدد مفهومه من جهة علاقته بالتاريخ، فهو قبل دخوله في الحضارة يكون في وضع المادة الخام، إذ يكون مستعدا لإنجاز الحضارة إذا توفرت الفكرة التي تعطيه دفعا إلى الأمام، وتسطر له هدفا واضحا، وعندما يتهيأ له دخول التاريخ تزداد شبكة العلاقات الاجتماعية متانة، وتستمر على هذا الحال إذا استمر في إبداع الأفكار ولم يستسلم لعالم الأشياء، عندها يكسب صفة الإنسان المتحضر، وتصبح الأشياء التي ينتجها معبرة عن روح حضارته، في هذه المرحلة يصبح التوجيه التربوي ذا قيمة كبيرة، من أجل المحافظة على توتره وفعاليته، ومن أجل إدامة حالة الاستعداد لإنجاز الحضارة، ذلك أن أهم شيء ينبغي الحرص عليه للبقاء في هذا المستوى، هو الإبقاء على همة الإنسان المحضِّرة في مستوى يجعل الناس قادرين على تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت[8].

وعندما تتضخم ذوات الأفراد وتفقد قدرتها على نسج علاقات اجتماعية يصبح العمل الجماعي صعبا أو مستحيلا[9]، فالإنسان عندما تتضخم ذاته وتغلب فرديته على منزعه الاجتماعي ينقلب إلى مجرد كائن بالمعنى الحيوي، ويفقد فعاليته بالمعنى الاجتماعي، وهو على هذه الحال ينسى وضعه في التاريخ ويغفل عما هو مطلوب منه، ولا يكون له نصيب إلا الانسحاب من الحياة، يصبح هدفه مقصورا على حفظ استمرار نوعه وحسب، وشعاره: عليك بخاصة نفسك، إذا نظرت إليه وجدته محروما من كل شيء ذي قيمة، ماديا أو معنويا، وعندها يكسب صفة الإنسان القابل للاستعمار، أو إنسان ما بعد الحضارة.

من هنا يمكننا أن نبني تصورا للإنسان عند مالك بن نبي، فالإنسان عنده تركيب من: فرد + مجتمع= فردا اجتماعيا، والفرد هنا يتجاوز معنى الشخص، وهذه الرؤية مستلهمة من القرآن الكريم، ذلك أن الإنسان الفرد يناله ما ينال المجتمع خيرا كان أوشرا[10].

---

[7] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع. ط3، دار الفكر، دمشق: 1406هـ/1986م ص 19.

[8] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق: 1423هـ/ 2002م، ص 36.

[9] ميلاد مجتمع، ص 43.

[10] كما في قوله عز وجل:

ISSN : 2410-1818

المطلب الثاني: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي.

الحضارة عند مالك بن نبي مفهوم مركزي، وهي مدار جميع تأملاته ونظراته، وهي عنده "يجب أن تتحدد من وجهة نظر وظيفية، وهي على ذلك مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه. فالمدرسة، والمعمل، والمستشفى، ونظام شبكة المواصلات، والأمن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه"[11]، هكذا تأخذ الحضارة معنى وظيفيا اجتماعيا، يوفر للفرد كل ما يمكنه من تطوير شخصيته، وبن نبي لم يهمل الحديث عن الطريق الذي يسلكه المجتمع من أجل توفير هذه الشروط، بل إنها أخذت حيزا كبيرا من انشغالاته، لا يعدل انشغاله بها إلا ذاك الذي خصصه للإنسان، لأن المفهومين(الحضارة، المجتمع) مترابطان.

يرى بن نبي أن الحضارة عندما تبدأ سيرها" لا يكون الزاد بطبيعة الحال من العلماء والعلوم، ولا من الإنتاج الصناعي أو الفنون، تلك الأمارات التي تشير إلى درجة ما من الرقي، بل إن الزاد هو المبدأ الذي يكون أساسا لهذه المنتجات جميعا"[12]. في انطلاق الحضارة لا يكون الزاد سوى العوامل المادية الثلاثة، الإنسان والتراب والوقت، هذه العوامل هي التي تجعل الأمة تخطو خطواتها الأولى في التاريخ[13]، على أن السر الكوني الذي يركب هذه العناصر الثلاثة ليبعثها قوة فعالة في التاريخ هو الفكرة الدينية[14].

يوضح مالك بن نبي مفهومه للحضارة من زوايا مختلفة، فتارة يعرضها في صيغة رياضية، وتارة يركز على بعدها البيولوجي الحيوي، وتارة من ناحية الكيف، وكل ذلك من أجل أن يحيط بأبعادها المتشعبة[15].

هكذا يبدو مالك بن نبي متجاوزا لكثير من صور المعالجة التي قدمت لمفهوم الحضارة، سواء ما قدم في سياق الفكر الغربي، أو ذلك الذي سبق لابن خلدون أن قدمه، لقد أفاد بن نبي من جملة

---

[11] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 43.

[12] شروط النهضة ، ص 50.

[13] المصدر نفسه، ص 50.

[14] المصدر نفسه، ص 50.

[15] المصدر نفسه، ص 43.

ISSN : 2410-1818

النقاشات التي دارت حول هذا المفهوم، لكنه في المقابل صاغ مفهوما جديدا خاصا به، قام فيه بعملية تركيب استحضر فيها كل ما من شأنه أن يهيئ سبل الارتقاء للإنسان ماديا وروحيا ومعنويا، وهو بذلك يفارق التوجهات المادية التي ترى في الحضارة مجرد إنجاز مادي، وهو عندما يرى في الفكرة الدينية عنصرا أساسيا مركبا لعناصر الحضارة الأخرى[16]، يفارق المفهوم الذي استقر في وعي الإنسان الغربي حول الدين بوصفه لا يجاوز الخبرة الذاتية، وهو على ذلك ليس شيئا أكثر من كونه منتوجا ثقافيا تبنيه الحضارة ولا تبنى عليه، شأنه شأن الآداب والفنون والصناعات المختلفة.

المبحث الثاني: الإنسان ومساره في مضمار الحضارة عند مالك بن نبي.

الناظر في كل كتب بن نبي يجد أن حديثه يدور حول الإنسان، يصف وضعه ويحلل نفسيته، بمنهجية عالم الاجتماع وخبرة الكهربائي، فإذا طرق قضية من قضاياه لا يدعها إلا وقد أتى على جزئياتها وتفاصيلها، وإذا وصف العلاج ربطه بأصل الداء، ليزيد من نجاعته وفاعليته. يتتبع بن نبي مسار الإنسان منذ ما قبل دخوله في دورة حضارية، إلى خروجه من الحضارة ليصبح من نفاياتها، وهو في تحليله ينطلق من مجريات التاريخ الإسلامي، فيلتقي عنده التقعيد النظري على المستوى الفلسفي مع التطبيق العملي على مستوى التاريخ، وهو في كل ذلك لا ينفك يؤكد أن الإنسان هو أصل الفعل ومصدره.

ينظر مالك بن نبي إلى الإنسان من جهة ما ينطوي عليه من قيمة اجتماعية، "فالإنسان لا يتغير بوصفه كائنا حيا في حدود التاريخ، وإنما يتغير بوصفه كائنا اجتماعيا تغيره الظروف، فإن التاريخ يعجز عن أن يغير شعرة واحدة في الإنسان، ولكنه يستطيع أن يزيد أو ينقص من ميزاته الاجتماعية. وفعاليته من ناحية المنطق العملي"[17] . وتغير وضع الإنسان في التاريخ بحسب ما يلحق ميزاته الاجتماعية من زيادة أو نقصان، يجعله يأخذ مكانه المناسب من الحضارة، والإنسان طبقا لذلك" إما أن يكون قبل الحضارة، وإما أن يكون في نعيم الحضارة، وإما أن يكون قد خرج من الحضارة"[18] ، وبناء على ذلك فكل جهد يهدف إلى إدخال الإنسان في الحضارة لا بد فيه من مراعاة هذه الأوضاع الثلاثة حتى يقدر النجاح لهذا الجهد، فما خصائص الإنسان في هذه الأوضاع الثلاثة؟ وما طبيعة الصعوبات الناجمة عن كل وضع؟ وكيف يكون التعامل السليم معها؟

[16] المصدر نفسه، ص61

[17] مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق: 2002 هـ/ 1423م، ص 26.

[18] المصدر نفسه، ص 29

ISSN : 2410-1818

المطلب الأول: إنسان ما قبل الحضارة(إنسان الفطرة):

إنسان ما قبل الحضارة في منظور مالك بن نبي هو ذاك الذي يظل مستعدا- كما هي الحال مع البدوي المعاصر للنبي- للدخول في دورة الحضارة[19] ، ويمثل بن نبي هذا الإنسان بجزيء الماء، ويقارن وضعه بهذا الأخير قبل وصوله إلى خزان ينتج الكهرباء، فجزيء الماء في هذه الحالة منطو على طاقة مذخورة معينة. قابلة لتأدية عمل نافع، إذا ما استعملتها أجهزة الخزان في الري أو في إنتاج الكهرباء[20].

يبين بن نبي وضع إنسان ما قبل الحضارة من خلال البحث في صلة هذا الأخير بعالم الأشياء والأشخاص والأفكار، ففي عالم الأشياء يجب أن نلاحظ أنه في هذا المستوى من مرحلة ما قبل التحضر أن عالم الأشياء هو نفسه يكون هو نفسه شديد الفقر، وتكون الأشياء فيه بدائية، كالسيف أو الرمح، أو الوتد والكنانة والقوس والسهام...والأدوات المنزلية الهزيلة المقرونة بحياة البداوة[21] لكن اشد أنواع الفقر التي كان يعاني منها ذلك البدوي هو فقره إلى الأفكار، وهذا هو السبب في تسمية تلك الحقبة بالجاهلية، إذ تسبب الفقر في الأفكار في الارتباط الوثن. "لقد أطلق القرآن الكريم تسمية الجاهلية- أي الجهل- على الوثنية التي سيطرت على الجزيرة العربية قبل الإسلام، ومع ذلك لم تكن تلك الجاهلية فقيرة في صناعة الأدب، فقد حفلت هذه القترة بألمع الأسماء، لكنها ظلت تسمى الجاهلية، أي عصر الجهالة لأن علاقاتها المقدسة لم تكن مع أفكار، وإنما كانت مع أوثان الكعبة"[22].

يربط مالك بن نبي نشاط هذا الإنسان وفاعليته بالدور الذي تؤديه الفكرة الدينية، مثل بن نبي لهذا الإنسان بذاك البدوي الذي لا يملك شيئا، لكن صفاء فطرته، وخلو نفسه من الأمراض التي يمكن أن تخلفها حضارات سابقة في إنسان آخر سبق له أن عاش حضارة من قبل، هذه الحال تيسر دخوله بسلاسة في دورة حضارية، وهذا يتوقف على توفر الفكرة الباعثة.

هنا نجد بن نبي وكأنه يستحضر ما سبق لابن خلدون أن تناوله، عندما يطابق بين وضع الإنسان في طور البداوة عند ابن خلدون ووضع الإنسان الفطري.

---

[19] شروط النهضة، ص70

[20] المصدر نفسه، ص 71.

[21] مالك بن نبي، مشكلة الأفكار. دار الفكر، دمشق: 2002 هـ/ 1423م ص 39.

[22] المصدر نفسه، ص، 96.

ISSN : 2410-1818

المطلب الثاني: إنسان الحضارة وخصائصه

إن أبرز ما يميز إنسان الحضارة عن إنسان ما قبل الحضارة هو وجود الفكرة الباعثة، تلك التي دفعت به إلى مسرح التاريخ، وهذه الفكرة الباعثة ليست شيئا أكثر من الفكرة الدينية، إذ أن كل حضارة يمكن عند البحث اكتشاف الفكرة الدينية القابعة خلفها، واستمرار الإنسان في مسار الحضارة مرتبط بحيوية الأفكار التي تطورها ثقافته، فضلا عن مدى ارتباطها بالفكرة الأصلية، بناء على ذلك فاستمرار الحضارة ليس يرتبط بكمية الأشياء المنتجة بقدر ما يرتبط بقيمة الأفكار، ليس يعني هذا خلو الحضارة من الأشياء، بل إن كل حضارة تنتج أشياءها التي تتفق مع روح ثقافتها، حيث تطبعها بطابعها وتمنحها روحها، فكلما أنتج الإنسان فكرة إيجابية كلما مد ذلك في عمر حضارته، والعكس صحيح، لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن تكاثر الأفكار الميتة وزيادة مساحة حضورها في الوعي يهدد الأفكار الإيجابية بالإقصاء، وكلما زادت المساحة التي تحتلها كان ذلك بالتأكيد على حساب الأفكار الإيجابية، عندها تضعف الحضارة ويمسها الضمور، إلى أن يحين وقت تشييعها وإعلان أفولها، ليس امتداد الأفكار الميتة هو وحده من يهدد الحضارة، بل إن الأفكار الوافدة المميتة هي ما يعجل في أفولها.

ولا شك أن من أهم خصائص إنسان الحضارة عند بن نبي مطابقة كلامه لعمله "فالمرء عندما يبلغ دور الاكتمال يضغط على نفسه، ويخالف ما درج عليه، محاولا بذلك تعديل وضعه، وحينئذ يصبح كلامه إرادة وعملا يدلان على وجود علاقة بين الكلمات والوقائع. فإذا انعدمت العلاقة بين الكلام والعمل أصبح الكلام هذرا"[23]. فالفكرة الإيجابية تحتاج من بين ما تحتاج إليه إلى فكرة أساسية بمثابة الضامن لها لكي تستمر وتثمر، وهذه الفكرة هي الفاعلية، ومطابقة العمل للقول.

المطلب الثالث: إنسان ما بعد الحضارة أو الإنسان القابل للاستعمار.

يستغرق الحديث عن الإنسان القابل للاستعمار أغلب كتب مالك بن نبي إن لم نقل كلها، تارة تلميحا وفي الأغلب تصريحا، حيث قام بتشريح نفسيته، وكشف عن علله، وأبان عن جملة الأمراض الخطيرة التي أصابته، هذا الإنسان يسميه بن نبي تارة إنسان ما بعد الموحدين وتارة إنسان ما بعد الحضارة، وما ينبغي التأكيد عليه أن بن نبي لا ينظر إلى الإنسان بوصفه فردا بيولوجيا، ولكن ينظر إليه من حيث كونه فردا اجتماعيا، ومن ثم فحديثه عن الإنسان هو حديث عن المجتمع، وهناك علاقة جدلية بين الإنسان الفرد، والفرد الاجتماعي، إذ كلما تطورت شبكة العلاقات الاجتماعية التي ينسجها الأفراد، واتحدت أهدافهم كلما استطاعوا أن يعجلوا باستئناف الدورة الحضارية، يحصل هذا عندما تبدأ الرغبة في التخلي عن الأنانية الفردية بالانحسار، ذلك لأنها تفضي إلى الانعزال فكرا

[23] وجهة العالم الإسلامي، ص 70.

ISSN : 2410-1818

وعملا، وهو مؤشر على التراجع والتقهقر. وإذا ما وصل المجتمع إلى هذه الحالة يكون بالفعل قد قطع صلته بمنابع قوته ومصدر حضارته، فـ"مجتمع ما بعد التحضر ليس مجتمعا يقف مكانه، بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها"[24].

يصف بن نبي إنسان ما بعد الموحدين بأنه "الإنسان المسلوب الحضارة [الذي] لم يعد قابلا لإنجاز "عمل محضر" إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية "[25]، ويوظف بن نبي الصورة نفسها التي استخدمها في بيان وضع إنسان ما قبل الحضارة، فجزيء الماء يصبح قاصرا عن تأدية العمل نفسه، فهو بعد الخزان يكون قد فقد طاقته المذخورة: وهو يعطينا صورة للإنسان المنحل حضاريا، أو الإنسان الذي خرج من دورة الحضارة[26]. يطبق مالك بن نبي مفهومه على التاريخ الإسلامي، وطبقا لذلك أطلق على الإنسان الذي توفرت فيه هذه الشروط إنسان ما بعد الموحدين، وهو إنسان ما بعد الحضارة حيث لم يعد في مقدوره الدخول في دورة حضارية جديدة، وأصبح يمثل وهو على هذه الحال النفايات التي تطرحها الحضارة، وهو في هذه المرحلة أصبح في وضع " القابلية للاستعمار"[27] .

إنسان ما بعد الموحدين بتصوير مالك بن نبي إنسان متبطل[28]، وفتور نشاطه يدعو للضحك والرثاء في الوقت نفسه، بما يخلفه على المستوى الاجتماعي من شلل تام وانعدام في الفعالية، وهذا الشلل يترجم في شكلين من أشكال الخيانة يتمثلان في العالم الإسلامي في صورة نوعين من الذهان: فإما أن يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة، وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى، "فقد نظرنا إلى اليهود

---

[24] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 38.

[25] شروط النهضة، ص 108.

[26] المصدر نفسه، ص71.

[27] القابلية للاستعمار سماها مولود قاسم نايت بلقاسم " المركوبية" أي قابلية هذا الإنسان لأن يركب . والقابلية للاستعمار لا تعني عند مالك بن نبي حصول الاستعمار بصورة حتمية، بل قد تتوفر الشروط للاستعمار وتتهيأ له الظروف ولكن لا يكون هناك استعمار، وإذا كانت الجزائر قد وقع عليها الاستعمار فليس ذلك يشير إلى أن هذا الاستعمار جاء مباشرة بعد تهيؤ الأسباب، بل إن الاستعمار ربما تأخر لأن الأسباب الداعية إليه كانت فقد توفرت منذ زمن بعيد، ولكن الظروف التاريخي هي التي أخرت حدوثه، ثم إن هناك بعض البلدان التي لم يدخلها الاستعمار، ولكنها بقيت على حالة من التخلف المريع، ولا شيء يفرقها عن البلاد التي دخلها الاستعمار. بل إن الاستعمار أحيانا يؤدي إلا تنبيه المستعمر بما يسلط عليه من ألوان الذل، فيكون ذلك عاملا منبها وداعيا إلى الثورة على الاستعمار.

[28] هذا المفهوم يحمل عند مالك بن مدلولا نفسيا اجتماعيا، فالتبطل أضحى مرضا مرده دهانا السهولة والاستحالة، فهذان الدهانان تسببا في بطالة على المستوى الفردي وعجزا وعطالة على المستوى الاجتماعي، فالتبطل هنا ليس شيئا أكثر إبطال الفرد لقواه الذاتية لعجز داخلي يمنعه من الحركة الفاعلة.

ISSN : 2410-1818

ونحن في الجزائر نظرة احتقار، فلم نقدر قوتهم، بينما هي واضحة وخاصة في المجال السياسي والاقتصادي، فقد نعلم أن دول أميركا وانجلترا وفرنسا تؤيد اليهود، ومع ذلك فقد قلنا حثالة حقيرة، حينما ننفخ عليهم نفخة واحدة يطيرون، ولكنهم للأسف لم يطيروا"[29]. وقد يأخذ هذا الذهان صورة النظر إليها على أنها مستحيلة فيصاب النشاط بالشلل وهو ما يحدث غالبا في شمال إفريقيا[30].

ويرى مالك بن نبي أن الذهان(الاستحالة) الأخير قام في الجزائر على قواعد ثلاثة ..وهي:

أ- لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون.

ب- لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء.

ج- لسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا.

وهذه الأدوار الغنائية الثلاثة هي العملة الشائعة التي يفسر بها حسنو النوايا عجزهم، كما يستخدمها الدجالون ليدافعوا عن مشروعاتهم المربحة مشروعات الشعوذة والمخاتلة، والاستعمار باسم قرير العين[31].

هكذا تحول إنسان ما بعد الموحدين إلى مجرد كائن بيولوجي يسلك مسلك الكائن الوحيد الخلية، يقنع بأقل القليل ليستمر على قيد الحياة، وهو عند هذا الحد ليست له القدرة على إنتاج الحضارة، وليس له أي استعداد لكي يتحول إلى شخص أو كائن اجتماعي قادر على أن ينخرط في شبكة من العلاقات الاجتماعية، تكون مدخلا لتغيير وضعه، أصبح هذا الإنسان كسولا خاملا لا يقدر على شيء أينما توجهه لا يأت بخير، "فالإنسان الخارج من الحضارة يحتوي على بعض الرواسب، ويكون أكثر مصدرا للمصاعب في المجتمع من ذلك الذي لم يدخل بعد إلى هذه الحضارة[32]، سبب ذلك يعود إلى الأمراض الاجتماعية التي هيمنت على نفسيته.

إنسان ما بعد الحضارة هو إنسان استرد الشيءُ سيطرته عليه، وأصبح يعيش حياته وهو مثقل بالأشياء، لكن هذه الأشياء خامدة وخالية من أي قيمة اجتماعية[33]، والأدهى من ذلك أن هذه الأشياء

---

[29] تأملات ص 30

[30] وجهة العالم الإسلامي، ص80

[31] المصدر نفسه، ص 80، 81.

[32] تأملات، ص 29.

[33] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص39.

ISSN : 2410-1818

تستعيد سلطتها على العقول والوعي رغم تفاهتها، وتبهظ الجيوب حين يتحتم شراؤها على الخارج[34]، في هذه المرحلة يفقد عالم الأشخاص نموذجه الأصلي الأول، وهكذا يتواصل الاطراد في المجتمع كما في الفرد، حتى نقطة الارتداد والانكفاء، وهنا تجمد الفكرة وتتجه المسيرة إلى الوراء[35]، هنا يعاد تشكيل عالم الأشخاص على هيئة تسمح له بتأدية دور جديد، وهذا الدور لا يصلح له سوى المتصوفين ثم المخادعين والدجالين من كل نوع[36].

وهنا يطرح السؤال، كيف لهذا الإنسان أن يتجاوز هذا الوضع ويتأهل للدخول إلى الحضارة مجددا؟

المبحث الثالث: طريق الإنسان إلى الحضارة

تمهيد: معيار التحضر

يتناول مالك بن نبي قضية انتقال الإنسان إلى الحضارة بتحليل الناحية النفسية والاجتماعية لديه تحديدا، حيث يكون الصراع على أشده بين قوتين، قوة تدفعه إلى الأمام وأخرى تريد منه التراجع، وهذه من أكبر الصعوبات التي تعترض دخول الفرد إلى الحضارة، فـ" هذا الإنسان [واقع] بين قوتين: قوة سلبية تريد إرجاعه إلى الوراء باستغلالها طبيعة الاستقرار في الإنسان، وقوى إيجابية تدفعه إلى الأمام وإلى تحقيق مستقبله، فينبغي ألا تضعف القوى الإيجابية فينا عن الوصول إلى الحضارة"[37].

وفي هذا السياق لم يهمل بن نبي الحديث عن معيار التحضر الذي ينبغي أن يسلك الإنسان طريقه إليه، ونعني بمعيار التحضر، الجواب عن سؤال: متى نقول عن الإنسان إنه متحضر؟

ليس تحضر الإنسان عند بن نبي مرتبطا بكم الأشياء التي يحوزها، بل يرتبط بالأفكار التي يطورها، ذلك أن حيازة الأشياء ليست أكثر من التعبير عن نزعة غريزية في التملك، التي قد تكون أحيانا تعويضا عن النقص في عالم الأفكار، بل الأخطر من ذلك هو تحول وهم التحضر باقتناء الأشياء وتكديسها إلى شعور بالرضى الزائف، الشعور بأنه يعيش الحضارة فعلا، في حين أن هذا مجرد استجابة للغريزة التي انفلتت من عقالها بعد أن ضعفت الرقابة عليها من الأفكار، بهذه الصورة يصبح العمل ضد الحضارة على أشده وعندها تتمكن قوى الانحلال وتزداد قوة.

---

[34] المصدر نفسه، ص 40.

[35] المصدر نفسه، ص 40.

[36] المصدر نفسه، ص 40.

[37] تأملات 30

ISSN : 2410-1818

المطلب الأول: تغيير ما بالنفس

تغيير ما بالنفس هو أحد الشروط الكبرى التي لا يمكن القفز عليها بأي حال في أي عملية تستهدف إعادة البناء، وهنا يستحضر مالك بن نبي قول الله تعالى:" **إن اللهَ لا يُغَيرُ ما بقومٍ حَتى يُغَيروا ما بأَنفسِهم** "[38] لينطلق منه في التأكيد على أن التغيير يبدأ أول ما يبدأ من النفس "لأن كل تغيير حقيقي في المجتمع لا يتصور دون تغيير ملائم في النفوس طبقا للقانون الأعلى"[39] الذي نصت عليه الآية. بناء على ذلك أولى أهمية كبيرة للحديث عن نفس الإنسان وما يعتريها في كل مراحله، خصوصا ما اتصل بتفاعلها مع عالم الأفكار، ويمكن تبين أهم المحطات في تغيير النفس عند بن نبي من خلال ما يأتي:

أ- **أولوية الفكرة**: إن غنى المجتمع الحقيقي هو غناه بالأفكار، والحضارة ما هي إلا تجل لفكرة ما في التاريخ، "إن حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به إلى التاريخ"[40]، ففي فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي، لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة[41]، وإذا كانت الحضارة يمكن تعريفها بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره[42]، فإن الفرد مهما توفر له من الإرادة والقدرة يصبح ضعيفا إذا كان منعزلا عن جماعته، ذلك أن الفرد إنما يحقق ذاته بفضل إرادة وقدرة ليستا نابعتين منه، إنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه[43]. والأمر نفسه ينطبق على الفرد الذي لا يجد في البيئة التي ينتمي إليها لا الإرادة في تقديم العون ولا القدرة على فعل ذلك[44]، ومعنى ذلك أن الفكرة مهما كانت قيمتها في ذاتها، فإن وجودها يصبح ناقصا مادامت تفتقر إلى المجتمع الذي يحتضنها، ويعطيها معنى، ذلك أن الفكرة إنما تكسب قيمتها بالوظيفة الاجتماعية التي تؤديها، يستتبع ذلك القول بأن الأفكار التي تسكن الأفراد إذا لم تجد المجتمع الذي يوفر لها أسباب النمو والظهور تصبح عديمة القيمة.

---

[38] سورة الرعد، الآية 11.

[39] القضايا الكبرى. ص 148.

[40] مشكلة الأفكار، ص 41.

[41] المصدر نفسه ص 42

[42] المصدر نفسه ص 42.

[43] المصدر نفسه ص 42.

[44] المصدر نفسه ، ص 43.

ISSN : 2410-1818

يعرض بن نبي لقصة "روبنسون كروزو"[45] ويقابل بينها وبين قصة "حي بن يقظان"[46]، ليستخلص من تحليل القصة الأولى كيف أن كروزو لما كان وحيدا معزولا في جزيرته، كان كل تفكيره منصبا على" الشيء"، بدا ذلك من خلال تقسيم ساعات يومه على ما ينبغي عليه إنجازه في عالم الأشياء، إن تمركز تفكير كروزو على الأشياء المادية جعل بن نبي يستخلص نتيجة في غاية الأهمية، وهي أن الإنسان الأوربي غاية ما يطمح إليه هو تطويع الشيء، وهو ما يدل على انحسار الجانب الديني لديه، وميله إلى الدنيوية بشكل ظاهر، وهو ما يعطي أهم ملمح للحضارة الأوربية، أما حي بن يقظان فإن تساؤلاته عند وفاة الظبية، تشير إلى توجه فكري، وإلى ميل إلى البحث في علل الأشياء[47]. يستخلص مالك بن نبي من هذين الموقفين نتيجة مهمة، وهي أن كل حضارة سواء في صعودها أو في سقوطها تختلف عن غيرها، فحضارة تتجه إلى عالم الأشياء، كما هو حال الحضارة الأوربية، وأخرى تتمركز حول الروح كما هو حال الحضارة الإسلامية[48].

إن هذا التفاوت والاختلاف في الروح التي توجه كل حضارة على حدة، تجعل من غير المناسب إقامة موازنة بينهما لاختلاف الجهة، " تلكم هي الحضارة في تقلباتها: تكون في الأوج حضارة تتركز فيها الأشياء حول فكرة حينا، وحينا تبلغ الأوج حضارة أخرى تتركز فيها الأفكار حول الشيء"[49]، هذا فضلا عن الاختلاف في تقدير العوالم الثلاثة.

ب- **تقديم الواجب على الحق**: من الكلمات التي لها وقع السحر على نفسية إنسان ما بعد الموحدين، كلمة" الحق" و "الحقوق " وما في معناها، هذه الكلمة لها قوة جذب خارقة لتلك النفوس التي لا

---

[45] عنوان القصة واسم بطلها، وهي قصة للكاتب الإنجليزي دانيال ديفو(1660- 1731م)، القصة تصور جانبا من حياة الإنسان الأوربي في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، ونعني به جانب حب المغامرة والاكتشاف، أدت هذه الرغبة الكبيرة في المغامرة بشاب إلى طلب الأسفار عبر البحار، لتتعرض سفينته إلى الغرق بفعل عاصفة قوية، نجا من الغرق بأعجوبة ليجد نفسه في جزيرة معزولة، اضطر في هذا الوضع الجديد إلى التكيف واستخدام مهاراته العملية السابقة في التعاطي مع عالم الأشياء إلى أن تم إجلاؤه عن الجزيرة، وهذا هو الجانب الذي لفت نظر بن نبي.

[46] حي بن يقظان، عنوان قصة واسم لبطلها، أعاد صياغها الفيلسوف ابن طفيل(501- 581هـ)، إذ كانت معروفة عند الفلاسفة المسلمين السابقين، وهي قصة فلسفية على غرار قصة سلامان وأبسال، لكنها اختصت بتصوير تصرف الإنسان الفطري الذي ينشأ ويعيش بعيدا عن المؤثرات الاجتماعية، إذ يبدأ بالتفكير في كل ما حوله من ظواهر الموت والحياة إلى أن يصل إلى معرفة الحق تبارك وتعالى، وهذا المنزع التجريدي هو ما نبه إليه مالك بن نبي.

[47] المصدر نفسه، ص 20، 21.

[48] المصدر نفسه ، ص19

[49] المصدر نفسه ، ص19

ISSN : 2410-1818

تقدم شيئا، و كلمة "الواجب" بالنسبة إليها ليست ذات معنى، لأنها أزالت مدلولات هذا المفهوم من عالمها الثقافي منذ زمن بعيد.

ارتبطت مسألة المناداة بالحقوق ونسيان الواجبات عند مالك بن نبي بالنكوص عن الغايات الكبرى التي اختطتها حركة الإصلاح بالجزائر بعد سنة 1925، لقد كانت الجزائر إلى هذا التاريخ- على رغم إسلامها- تدين بالوثنية التي قامت نصبها في الزوايا، هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات، ولاقتناء "الحروز"[50] ذات الخوارق والمعجزات، غير أنه ما إن سطع نور الفكرة الإصلاحية حتى تحطم ذلك المعبد، ، فخرت الأوثان مع أسف عماتنا وخالاتنا اللاتي أدهشهن ما رأين[51]، لقد تحطم المعبد وتحطمت معه أوثانه بعد أن هجره حراسه، كانت جذوة الإصلاح متقدة، وبدأت المفاسد الأخلاقية تختفي، وامتلأت المساجد برواد الخمارات، لقد ذهبت بذهاب أولئك الدراويش الجنة التي وعدها المريدون دون كد وعمل، وحلت مكانها جنة الله التي وعدها المتقين العاملين[52]، كان من المتوقع استمرار هذه الجذوة في حركة تصاعدية لولا أن الحروز التي نبذها الشعب – وقد كانت توزع عليه لجلب الحظ – عادت إليه تحت مسمى الانتخابات، لقد مكن الاستعمار دعاة الانتخابات من تنويم الشعب مرة أخرى، حين استبدلت التجمعات الانتخابية بالزردة التي كان يدعو إليها الدراويش المشعوذون، وكانت أكبر خطيئة وقع فيها السياسيون وكان لها أثر الأقراص المنومة على عموم الشعب، خطيئة المطالبة بالحقوق، وكان لعبارة "الحقوق تؤخذ ولا تعطى" الحظ الأوفر في تضليل العقول البسيطة[53]، لقد غاب عن هؤلاء أن "الحق ليس هدية تعطى، ولا غنيمة تغتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، والشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدل من وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي"[54].

---

[50] جمع مفردها حرز، وهي من التمائم، ورقة تكتب فيها تعاويذ وتحفظ في قطع من الجلد تخاط عليها حتى لا يمسها الماء، تعلق عادة في الأعناق للوقاية من مس الجن.

[51] شروط النهضة ، ص28

[52] المصدر نفسه، ص 28، 29.

[53] المصدر نفسه ، ص 32.

[54] المصدر نفسه ، ص 32.

ISSN : 2410-1818

كانت هناك معجزة تشق طريقها بثبات، لكنها ضلت طريقها وعادت أدراجها شطر السراب السياسي، أصبحنا حينها لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات[55].

أن يتعلم شعب كيف يقدم الواجب على الحق هو أول خطوة في الطريق الصحيح، ذلك أن أداء الواجب معناه العودة إلى تقدير العمل، أما من غير ذلك، من شعارات المطالبة بالحقوق فليس أكثر من ترديد لمأساة شعب ضيع طريقه في التاريخ.

ت- **الفعالية**: ترتبط الفعالية في منظور بن نبي بـ"التحولات النفسية التي تدخل في الاطراد وتصبح بادية في المستوى الاجتماعي والسياسي، [التي] تنشأ في مستوى الدوافع التي تتحكم في السلوك[56]، وكلما زادت فعالية الفرد كلما نقص تخلف المجتمع[57]. في مفتتح عهد الحضارة الإسلامية كان مستوى الفعالية عاليا جدا، حيث كان حضور المبدأ قويا، لكن بدا وكأن تحولا تدريجيا عن هذا لمبدأ صار أقرب ما يكون إلى الإعلان عن نفسه، تجلى هذا التحول في الفتور الذي حد من هذه الفعالية عندما رضخ المبدأ للمصلحة العاجلة في صورة:" إن صلاتي خلف علي لأفضل، وطعامي مع معاوية أكثر لذة"، حيث يمكن التأريخ بهذه المرحلة لبداية ضعف الرقابة التي تمارسها الفكرة الدينية، وإن كانت آثارها لم تدرك إلا بعد حين لأسباب أخرى، أهمها بقاء الفكرة على مستوى عال من الحضور في باقي المستويات.

إن هذه الفعالية يمكن أن تستعيد موقعها إذا ما أعيد إحياء الفكرة الأصلية، وأعيد تفعيلها، وهذا لا يكون إلا بتغيير ما بالنفس وإقدارها على تجاوز وضعها المألوف وهذا من شأن علم لم يوضع له اسم بعد، ويمكن تسميته: تجديد الصلة بالله[58]، فهو الكفيل بتوفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطشة إلى انتفاضة القلب، كيما تنتصر على ما أصابها من جمود[59].

---

[55] المصدر نفسه ، ص 34.

[56] مشكلة الأفكار، ص 156.

[57] القضايا الكبرى، ص 71.

[58] لم يرد بن نبي تسمية هذا العلم بالتصوف في تقديرنا لسببين: 1- حتى لا يلتبس ما يرمي إليه بالتقاليد الصوفية الموروثة عن عصر ما بعد الموحدين، لأن مراده إحداث القطيعة مع هذا المفهوم.2- حتى لا يعطي مبررا للاستمرار في الدجل باسم التصوف.

[59] وجهة العالم الإسلامي، ص54.

ISSN : 2410-1818

المطلب الثاني: التوجيه الأخلاقي و التوجيه الجمالي أو توجيه الثقافة.

دخول الإنسان في دورة حضارية جديدة بكل ما يلزمه من تغيير ما بالنفس، والانتقال من العطالة إلى الفعالية يحتاج بالضرورة إلى توجيه أخلاقي وجمالي، هذا يعني أن الحضارة تحتاج إلى عدة قيمية، سواء في مضمار القيم الأخلاقية أو الجمالية.

أ- **التوجيه الأخلاقي**: عرفنا إلى الآن أن البوصلة التي توجه تفكير مالك بن نبي هو مدى صلة أي فكرة بالناحية الاجتماعية، فالأخلاق بالنسبة إليه لا تبحث في جانبها الفلسفي المجرد، وإنما تبحث من جهة وظيفتها الاجتماعية، فليس يعنينا البحث في المبادئ الخلقية بقدر ما يعنينا تحديد قوة التماسك اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية[60]، ذلك أن الدخول في شبكة العلاقات الاجتماعية شرط لاستئناف دورة حضارية جديدة، والمجتمع الذي تواجهه هذه المهمة يحتاج إلى توظيف غريزة التجمع بروح أخلاقية سامية. إن هذه الروح الأخلاقية منحة السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان مؤذنة بميلاد الحضارات، مهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض[61]، هذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:" **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**"[62]. انطلاقا من هذا يؤكد بن نبي أن قوة التماسك الضرورية لبناء مجتمع جديد موجودة في الإسلام، الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي[63]. ويكفي هنا أن نستحضر قول النبي عليه الصلاة والسلام، في حديث أبي الدرداء فعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة **فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**"[64].

ب- **التوجيه الجمالي**: المسحة الجمالية سمة المجتمع المتحضر، والذوق الجميل يولد في الفرد رغبة في الإحسان في العمل وتوخيا للكريم من العادات[65]، والإحسان في أداء العمل يعني أداؤه في صورة جميلة، لا يقتصر الذوق الجمالي على أداء الأعمال بل يمتد إلى أبسط الأشياء، حتى تلك التي لا

---

[60] شروط النهضة، ص 88.

[61] المصدر نفسه، ص88.

[62] سورة الأنفال، 63.

[63] شروط النهضة، ص 90.

[64] رواه أبو داود بإسناد حسن.

[65] شروط النهضة، ص 91.

ISSN : 2410-1818

نلقي لها بالا ، " إن اللّه جميل يحب الجمال[66]. إن معنى الجمال هنا يشمل الأقوال والأفعال، الظاهر والباطن، الشكل والمضمون، إن الجمال يشمل كل جوانب الحياة، " إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا ، وأن نتمثل في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي"[67]. يحلل مالك بن نبي التأثير الذي يحلفه الجمال على الناحية النفسية الأفراد ، فيعرض لنا نموذج الطفل الذي يرتدي أسمالا متسخة ، بوصفه نموذجا للصورة القبيحة بكل ما تحمله من معاني الإهمال واحتقار الذات، " إن أسمال هذا الطفل – على كونها أسمالا- تحمل معنى القبح، وتحمل أكثر من ذلك جراثيم تقتله ماديا وأدبيا ، فليست هذه الأسمال جرابا للوسخ فقط، ولكنها سجن لنفس الطفل أيضا"[68]، هنا يربط بن نبي بين تلك المرقعات التي يرتديها هذا الطفل وبين ما تسببه من ضعة نفسية وبؤس شنيع، فالمظهر يؤثر على المخبر بلا شك، فالجبة تصنع الشيخ والقبعة تصنع القسيس.[69]، وهنا يظهر التوجيه الاجتماعي للجمال عند بن نبي، حيث يصبح تعبيرا عن التناغم والانسجام الموجود داخل المجتمع، وهو تناغم يستبعد كل صور النشاز التي تشوش على الذوق السليم الذي ينبغي أن يسود.

على أن ما ينبغي التذكير به في هذا المقام، هو أن المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، لا ينفصلان عن بعضهما في الثقافة الإسلامية بوصفهما مركبين رئيسين في الحضارة كما في غيرها ، لكن طبيعة العلاقة بينهما هي التي تحدد اتجاه الحضارة، وهو ما يصوغه في صورة المعادلة:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي= اتجاه حضارة[70]، فالعلاقة بين المبدأين تختلف في الثقافة الإسلامية عنها في الثقافة الغربية، كما يختلف شأن ترتيبهما أيضا ، في الثقافة الإسلامية يقدم المبدأ الأخلاقي على الجمالي، فتتجه الحضارة اتجاه مبدأ الخير، أما الثقافة الغربية فتقدم المبدأ الجمالي على المبدأ

[66] أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود.

[67] شروط النهضة، ص94.

[68] المصدر نفسه، ص92.

[69] المصدر نفسه، ص92.

[70] المصدر نفسه، ص101.

ISSN : 2410-1818

الأخلاقي فتتجه إلى السيطرة، وهو ما يجعل كل حضارة تأخذ اتجاها معينا، وهذا ينعكس بالضرورة على علاقات إنسان كل حضارة بالإنسانية.[71]

المطلب الثالث: توجيه العمل ورأس المال

يمثل توجيه كل من العمل ورأس المال عنصرين رئيسين في مشكلة الإنسان، ويمثلان مع جانب الثقافة ثلاثي معضلته.

يرى بن نبي "أن العمل هو وحده الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي رغم أنه ليس عنصرا أساسيا مثل الإنسان والتراب والوقت، إلا أنه يتولد من هذه العناصر الثلاثة لا من الخطب الانتخابية أو الوعظية"[72]، وإذا كان على هذا المستوى من الأهمية، فإنه بلا شك يحتاج إلى توجيه، يجعله معبرا عن توجه واضح لمجتمع يسعى لتغيير وضعه، " إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي ببعامة، يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل، والراعي، وصاحب الحرفة، والتاجر، والطالب، والعالم، والمرأة، والمثقف والفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء"[73]، فتوجيه العمل من شأنه تغيير وضع الإنسان، وخلق بيئة جديدة لنشاط الفرد تمكنه من كسب قوته وسد حاجته[74]، وهل هناك حضارة لا يكون من وظائفها توفير العيش الكريم للإنسان؟.

يرتبط توجيه العمل وظيفيا بتوجيه رأس المال، فالعمل بلا شك في مستوى من المستويات يحتاج إلى رأس المال. يبدأ بن نبي بتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تم تشكيلها حول رأس المال، إذ يرى أن هناك خلطا كبيرا بينه وبين الثروة ، فالثروة مفهوم يحيلنا على مكاسب شخص بعينه تنسب إليه، لكنها لا تدخل في الدورة الاقتصادية، فهي حبيسة حقل صاحبها أو حبيسة داره، فليس لها من عمل مستقل[75]، وهي على هذه الحال لا تدخل في إنتاج، ولا في تجارة، وهي بذلك تبقى شيئا بدائيا ليس له قيمة اجتماعية. أما رأس المال فهو خلاف ذلك، إنه لا ينسب إلى أحد، ومجال حركته هو المجتمع بكامله، وكلما اتسع ميدان حركته ساهم في تنشيط الحياة الاقتصادية، وساهم في القضاء على

---

[71] المصدر نفسه، ص103.

[72] المصدر نفسه، ص 106، 107.

[73] المصدر نفسه، 107.

[74] المصدر نفسه، 108.

[75] المصدر نفسه، ص 110.

ISSN : 2410-1818

الفقر، ولذلك من المهم السعي إلى تحويل الثروة إلى رأس المال[76]، لأن هذا هو سبيل إكساب المال معنى اجتماعيا، يوسع من دائرة الانتفاع الجماعي، ويسهم في إمداد الحضارة بعناصر قوة جديدة.

المطب الرابع: إعادة الاعتبار إلى التراب والوقت

إذا كان بن نبي يصر على النظر إلى الإنسان على أنه العامل الأساسي في استئناف الحضارة ودفعها إلى الأمام، فإن هناك عنصرين في تقديره لا يمكن الحديث عن الحضارة دونهما، وهما التراب والوقت، بل إنه أشار في مواضع كثيرة إلى أن انطلاق الدورة الحضارية في البدء لا يحتاج إلا إلى هذه العناصر الثلاثة، تبعا لذلك قال بتحليل عنصري التراب والوقت وبين دورهما في انبعاث الحضارة، ويمكن بسط وجهة نظر بن نبي في هذا من خلال الآتي:

أ- **التراب**: هو أحد العناصر الثلاثة اللازمة لانبعاث الحضارة، فإذا ما توفر المركب الديني لتركيب هذه العناصر انبعثت الحضارة . إننا نرى التراب في بلاد الإسلام جديرا ببحثه كعامل من عوامل الحضارة[77]، بهذه العبارة يبدأ مالك بن نبي حديثه عن التراب مؤكدا في الوقت ذاته على قيمته الاجتماعية، "فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة ... يكون التراب على قدرها من الانحطاط"[78]ويضرب مالك بن نبي مثالا بالجزائر التي أصبحت الأراضي الزراعية بها إلى تقهقر، حيث التصحر يلتهم سنويا أراض شاسعة[79].

ومالك بن نبي لا يقصد بالتراب ما يتبادر إلى الذهن من هذه الكلمة فقط، بل إنه وظف كلمة التراب بدلا من كلمة المادة لما تثيره من التباس، وهو يشير بالتراب إلى جملة الإمكانات المتوفرة من البدء للإنسان لينطلق منها في تشييد حضارته، لكنه في المقابل لا يغفل عن التأكيد الدائم لقيمة التراب بمعناه المتعارف عليه، ذلك أن التراب هو الذي يلبي حاجات الإنسان إذا أحسن التصرف فيه، وفي هذا يقف بن نبي حائرا أمام الصمت الرهيب والسكوت المريب أمام الخطر الكبير الذي صار يشكله التصحر على مناطق واسعة من الأرض شمال الجزائر، حيث صار يلتهم مناطق واسعة بصورة جعلت الإنسان يفر جهة الشمال، فالإنسان لم يعد يهتم للزراعة، بعد أن قل مردودها، وتراجع ليمارس الرعي، لكن ذلك ليس إلا مقدمة لترك الأرض، بعد أن صارت مجدبة لا توفر له طعاما ولا لماشيته مرعى. يرى بن نبي أن السبيل إلى حل هذه المعضلة هو العناية بالشجرة، والاستفادة من تجارب الآخرين في هذا

---

[76] المصدر نفسه، ص 112.

[77] المصدر نفسه ، ص 131

[78] المصدر نفسه ، ص 131

[79] لقد تحولت الجزائر إلى بلد مستورد للحبوب بعد أن كانت مصدرة.

ISSN : 2410-1818

الشأن، فهناك بلدان حققت معجزات مشهودة. إن صلة التراب بالحضارة كما يبسطها بن نبي تظهر أول ما تظهر في تلبية الحاجات الأساسية للإنسان، فالإنسان الجائع الذي لا يجد ما يسد حاجته لا يستقيم له في حياته شيء، فكيف يبدع من لم يستطع سد جوعه، بل كيف يعبد ربه على الوجه الصحيح وهو لا يعرف كيف يزرع الحب ليقتات عليه؟ إن تقدير التراب هو أول الخطو على طريق الحضارة، وكلما كان تقدير الإنسان للتراب في المستوى المطلوب، كلما كان أقرب إلى تحقيق شرط أساسي للحضارة.

ب- **الوقت**: يبدأ بن نبي بتشخيص مشكلة الوقت لدى المسلمين، إذ يراها واحدة من أكبر المعضلات التي تحتاج إلى الوقوف عندها طويلا. يرى بن نبي أن" حظ الشعب العربي الإسلامي من الساعات كحظ أي شعب متحضر، ولكن عندما يدق الناقوس مناديا الرجال والنساء، والأطفال إلى مجالات العمل في البلاد المتحضرة، أين يذهب الشعب الإسلامي؟ تلكم هي المسألة المؤلمة... فنحن في العالم الإسلامي نعرف شيئا يسمى الوقت، ولكنه الوقت الذي ينتهي إلى عدم" [80]. يدرك مالك بن نبي تمام الإدراك إلى أين يذهب الشعب العربي الإسلامي عندما ينادي منادي الجد، بالتأكيد سيهربون من أنفسهم إلى أماكن لقتل الوقت، وهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم، بهذه الصورة يصبح الوقت لا يحمل أي معنى، وإذا كان الوقت في معادلة الحضارة هو الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، فإنه عند الشعب العربي الإسلامي لا معنى له، قال مالك بن نبي بكل حسرة" إن من الصعب أن يسمع شعب ثرثار الصوت الصامت لخطى الزمن الهارب"[81]، هذه حالة الشعب العربي المسلم الذي يعرف شيئا اسمه الوقت، لكنه الوقت الذي ينتهي إلى عدم ، لأننا لا ندرك معناه ولا تجزئته الفنية[82]، وتبعا لذلك فإن عدم إدراك قيمة الوقت ينذر بتأخر في استئناف الدورة الحضارية الموعودة، لأن استئناف هذه الدورة مرتبط بساعات زمن لها بداية، وما دامت هذه الساعات لا قيمة لها، فالبداية بالتأكيد مازالت بعيدة.

في المقابل ينبه بن نبي إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي أحد المفاصل الكبرى التي يمكن من خلالها إدراك التمايز بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية، وهو تمايز يرجع إلى طبيعة كل منهما، إن التقدير المبالغ فيه الذي يحظى به الوقت في الثقافة الغربية أصبح من اليسير إدراك آثاره المدمرة، حيث أصبح الوقت في هذه الثقافة يحسب بما ينجز فيه من أشياء لا غير، "فالفكر الغربي يجنح على ما يبدو أساسا إلى الدوران حول مفهوم الوزن والكم. وهو عندما ينحرف نحو المغالاة فهو

[80] المصدر نفسه، ص 48.

[81] المصدر نفسه، ص 141

[82] المصدر نفسه، ص 140

ISSN : 2410-1818

يصل حتما إلى المادية في شكليها، الشكل البرجوازي للمجتمع الاستهلاكي، والشكل الجدلي للمجتمع السوفياتي"[83]، ومن ثم، "إذا كان ينبغي على البلاد الإسلامية أن تقدر في ثقافتها الحاضرة- إذا جاز التعبير- الآثار السيئة للتفريط بقيمة الزمن في نشاطها، فإن عليها بالمقابل ألا تغلو في الإفراط في تقديره، حيث نستطيع أن نرى بسهولة نتائجه السلبية في البلاد الصناعية"[84]. كان بن نبي على دراية كافية بالخطر الذي يترصد الإنسان عموما، هذا الخطر مصدره التقدير الزائد للوقت الذي يصل إلى حد تحويل الإنسان إلى مجرد آلة تستجيب لدقات الجرس التي تعلن حلول موعد الجلوس إلى الآلة أو القيام عنها، لقد تحول الإنسان بسبب هذا إلى مجرد كائن خاضع للمنعكس الشرطي الذي تحدث عنه "بافلوف"[85]، غير أن هذا الخطر وقعه أشد على الإنسان في العالم الإسلامي تحديد، يعود سبب ذلك إلى وقوعه بين التبطل المحزن الموروث عن عصر ما بعد الموحدين الذي لا يقيم وزنا للوقت(فكرة ميتة)، وبين التقدير المفرط الذي يراه في الثقافة الأوربية(فكرة مميتة)، إذ يجد نفسه في هذه الحالة بين مطرقة التبطل الذي يقتله ألف مرة كل ساعة، وبين سندان الآلة التي لا ترحم، والمؤكد في هذا الوضع أن (المتنور) سيجد نفسه في وضع المجبر على تحمل سندان الآلة، هروبا في تقديره من الفراغ الرهيب الذي سيعيشه إن هو بقي مكانه، والمؤكد أنه إن سلك هذا الطريق يكون قد بدأ يعمل عكس ما تقتضيه ثقافته، وعكس ما تطلبه روح حضارته، وقد كان عليه أن يشق طريقا آخر، طريقا هو أقرب إلى اكتشاف ما تنطوي عليه ثقافته من قيم إيجابية في هذا المضمار، فالخطر الذي يتهددنا دوما هو أننا " ما إن نبدأ بمعالجة الأفكار الميتة التي لم يعد لها جذور في بوتقة الثقافة الأصلية للعالم الإسلامي، حتى نصطدم بالأفكار المميتة التي خلفت في عالمها الثقافي الأصلي جذورها ووفدت إلينا"[86].

المطلب الخامس: الفكرة الدينية

الفكرة الدينية شرط لازم لظهور الحضارة فهي "لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السما، أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس إلى معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"[87]، هذا لا يخص الحضارة الإسلامية وحدها، بل يشمل كل الحضارات، إذ "ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات

[83] مشكلة الأفكار، ص24

[84] المصدر نفسه، ص 23.

[85] إيفان بيتروفيتش بافلوف(1849- 1936)، عالم روسي، عرف بنظريته في المنعكس الشرطي في تفسير التعلم.

[86] المصدر نفسه ، ص 149.

[87] شروط النهضة، ص51.

ISSN : 2410-1818

عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية ، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية"[88] وإذا كان هذا واضحا بالنسبة للحضارة الإسلامية، فقد يبدو غريبا بالنسبة لغيرها، لكن بن نبي يؤكد أن هذا ما نكتشفه عند فحص العوامل التي تقف وراء ظهور كل الحضارات.

في هذا الشأن يفحص بن نبي دور الفكرة المسيحية في ظهور الحضارة الأوربية، ويرى أن شأنها هو شأن الفكرة الدينية الإسلامية، سوى أن هناك فرقا بينهما يمكن إدراكه من خلال النظر في التاريخ، فالتاريخ يقرر أن الحضارة تولد مرتين، الأولى حين ميلاد الفكرة الدينية، والثانية: تسجيل هذه الفكرة في الأنفس ودخولها في أحداث التاريخ، وقد جمعت المدنية الإسلامية بين المولدين في وقت واحد، ويعود ذلك إلى كون البيئة التي ولدت فيها الفكرة الإسلامية بيئة عذراء، تخلو من الثقافات والأديان المختلفة[89]، بينما" لم يكن حظ الحضارة المسيحية في نفوس أهلها وبيئتها، كحظ الحضارة الإسلامية، فقد نشأت المسيحية في وسط فيه الخليط من الديانات، والثقافات العبرية، والرومانية، واليونانية، فلم يتح لها أن تدخل إلى قلوب الناس وسط الزحام الفكري الثقافي، لتؤثر فيه تأثيرا فعالا. ولم يكتب لها أن تعمل عملها إلا عندما بلغت وسط البداوة الجرمانية في شمال أوربا، حيث وجدت النفوس الشاغرة، فتمكنت منها، وبعثت فيها الروح الفعالة، التي اندفعت بها لتكون حلقتها في سلسلة التاريخ"[90].

إن الفكرة الدينية إذا حلت بنفس الإنسان حسب بن نبي فإن أول عمل تقوم به هو كبح جماح الغريزة، وتقييد قوى الانحلال ومنعها من الظهور، وذلك بما توفره لحياة الإنسان من معنى سامي، وبن نبي يرى أن هذه سنة ماضية في الحضارات جميعا، وهو ما جعله يدرك أن الحضارة الغربية قد بدأت قوى الانحلال تدب في أوصالها، حين أطلق العنان للغرائز، وحين كفت الفكرة المسيحية عن أداء دورها في توجيه الإنسان، خاصة وهي تجتهد في قطع صلته بالسماء.

[88] المصدر نفسه، ص50.

[89] المصدر نفسه، ص55.

[90] المصدر نفسه، ص 55.

ISSN : 2410-1818

المبحث الرابع: صعوبات في طريق الدخول في الحضارة

تمهيد: الإنسان بين قهر الاستعمار ومرض القابلية للاستعمار

لا يمكن الفصل بين حديث مالك بن نبي عن الإنسان في نطاق فلسفي بروح التنظير لما ينبغي أن يكون عليه وضعه، وبين حديثه عن الإنسان المستعمر الذي يعيش معه ويعرف معاناته التي كان له منها نصيب كبير، لقد عاش بن نبي مع هذا الإنسان الذي مضى عليه حين من الدهر منذ أن أصيب بمرض القابلية للاستعمار، ذلك أن بن نبي استمد مادة فلسفته في الحضارة من واقع الإنسان المسلم في رقعة جغرافية تمتد من طنجة إلى جاكرتا، ومن غانا إلى فرغانة، وواقع الإنسان الجزائري تحديدا، كانت هذه الجدلية حاضرة في كل ما طرحه مالك بن نبي، في شقها الأول ينطلق من الواقع الماثل أمامه ليستخلص منه قواعد يحولها إلى رؤية فلسفية، وفي شقها الثاني يربط النظرية بوصفها نموذجا تفسيريا بالوقائع، فإذا بها تنتظم في نسق نظري محكم، لقد خبر بن نبي واقع الإنسان المسلم وحاول كشف علله التي تمنعه من الانخراط في الحضارة، ورآها لا تخرج عن عاملين اثنين: الأول هو رواسب وأمراض إنسان ما بعد الموحدين التي أبرزها ما غلب عليه من أفكار ميتة أو ما سماه بن نبي "القابلية للاستعمار"، والثاني معامل الاستعمار وما ارتبط به من أمراض وما نقله من أفكار مميتة، فماذا قال مالك بن نبي بشأن هذين العاملين اللذين أنتجا إنسانا ممسوخا حتى ليصعب اعتباره آدميا؟ وكيف تضافرا وتعاونا ليجعلا من الإنسان المسلم مجرد كائن خارج التاريخ ومعطل عن أي فعل مبدع، ووقفا حائلا بينه وبين الانتقال إلى مرحلة تقدير مشكلته الحقيقية وتقديم الحلول بشأنها؟

المطلب الأول: الأفكار الميتة والأفكار المميتة

هذه الأفكار تمثل طرفي المأساة الاستعمارية، وهي القابلية للاستعمار، والاستعمار، تبدأ المأساة مع تغلغل الأفكار الميتة التي خلفها مجتمع ما بعد الموحدين التي تبدو أشد فتكا[91]. فالفكرة الميتة هي الفكرة التي خذلت الأصول، فكرة انحرفت عن مثلها الأعلى، هي الفكرة التي فقدت هويتها وقيمتها الثقافيتين، بعدما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها، في عالمها الثقافي الأصلي[92]. إذا كان هذا هو حال عالم الأفكار في العالم الإسلامي، فإن الغرب كذلك توجد فيه أفكار ميتة كما توجد فيه أفكار حية، والأفكار الحية هي قوام استمرار حضارته، غير أن واحدة من أخطر الظواهر الجديرة بالملاحظة هي تلك التي نراها في تعاطي النخب على اختلافها مع هذه الأفكار، هذه النخب عادة ما تذهب باحثة عن الأفكار الميتة وتطلبها، ولا تلتفت إلى الأفكار الحية، وقد يبدو هذا مدعاة إلى الحيرة، لكن هذه الحيرة سرعان ما تزول إذا أدركنا أن ما يحدد وجهة هذه النخب هو ميراث ما

[91] مشكلة الأفكار، ص 148.

[92] المصدر نفسه، ص 153.

ISSN : 2410-1818

بعد الموحدين، الذي شكل وعي هذه النخبة وحدد خياراتها بإرادة منها أو بغيرها[93]، فـ"الأفكار الميتة وعصر ما بعد الموحدين قد وضعا لأعيننا ما يوضع للفرس من كمامات تمنع من إجالة الرؤية، فلم يستبن لنا شيء آخر غير التافه والمجرد، وحتى المميت"[94] إن هذه الوضعية جعلت "الفكرة الميتة التي يحملها تنادي وتستدعي الفكرة المميتة التي تلقاها المجتمع الإسلامي"[95]، لأن "فكر ما بعد الموحدين هو الذي ينضج الأفكار الميتة من جهة، ويمتص الأفكار المميتة من جهة أخرى"[96].

يمكن إدراك سريان هذه العلة في مستويات مختلفة، لكنها تخضع لنفس المنطق الذي يحكمها جميعا، فليس ذلك يعود إلى طبيعة الثقافة الغربية، بل إلى طبيعة علاقتنا بها. "إن الطالب المسلم الذي يلتحق بمدرستها هو بين نموذجين: الطالب المجد، والطالب السائح. وكلا الطالبين المجد والسائح، لا يذهبان إلى منابع الحضارة، بل إلى حيث تتقطر فيها أو تلقى فيها نفاياتها، يذهبان إلى حيث لا يجدان: حياتها وحرارتها ، حقيقتها المتجسدة في الفلاح والحرفي والفنان والعالم، هذا الحشد من الرجال والنساء الذين يصنعون كل يوم في مدنهم وفي قراهم مجدها اليومي"[97]، إن مثل هؤلاء لا يرون من النساء إلا المرأة المبتذلة، لكنهم لا يرون تلك تصنع الحضارة في المعمل وفي المزرعة، ولا تلك الريفية التي تربي أبناءها في صمت. إن المرأة المبتذلة والمتشرد وغيرهما يمثلان في حقيقة الأمر النفايات التي تطرحها هذه الحضارة في سيرها، ويمثلان الأفكار الميتة التي تؤدي دورا سلبيا في هذه الحضارة، "وليس العنصر المميت الذي نصادفه في ذلك الوسط الثقافي إلا نوعا من النفايات، الجزء الميت من تلك الحضارة"[98]. والمؤكد أن مثل هذه الأفكار عندما ينقلها ذاك المتشبع بميراث ما بعد الموحدين ستستمر في أداء نفس الدور الذي كانت تؤديه في بيئتها الأصلية، لكن دورها في البيئة الجديدة سيكون أخطر، لأنها في بيئتها الأصلية كانت تعيش على الهامش، لكن في البيئة الجديدة صارت تأخذ مقام الصدارة، إن المسار الذي تتخذه الفكرة مهما كانت في ذاتها، يتم تحديده من خلال طبيعة وعينا بها، فـ"إذا كان وعي عصر ما بعد الموحدين يذهب ليلتقط من العواصم الغربية تلك النفايات بالذات فينبغي ألا يلوم أحدا غيره. وينبغي أن نضع في اعتبارنا نتيجة هذه النفايات، حينما يتم توليفها في العصارة الثقافية

---

[93] المصدر نفسه ، 149.

[94] المصدر نفسه ص 152.

[95] المصدر نفسه ص، 149.

[96] المصدر نفسه ص149.

[97] المصدر نفسه ، ص 152.

[98] المصدر نفسه ، ص 150.

ISSN : 2410-1818

للمجتمع الذي يمتصها. والنتيجة إذن بكل تأكيد تعفن، إذا رأته العقول السطحية في بلادنا فإنها تخلط بينه وبين الثقافة الغربية"[99]. عند فحص هذه الأفكار سواء الميتة أو المميتة نجدها تمثل نفايات الحضارة، الأولى نفايات حضارة أفل نجمها، ونفايات حضارة تم التخلص منها، وكلاهما يمارسان انتقاما خطيرا، وينشران أمراضا يصعب علاجها، لكن المؤكد أن هذا الانتقام سيستمر على أشده إذا لم يتم التنبه إليها، ويمكن القول بأنها تمثل أحد أكبر الصعوبات التي تواجه أي عمل لاستئناف الدورة الحضارية، وهو ما يحتم معالجة هذه المشكلة وفق رؤية تربوية شاملة، تستهدف محاربة قوى الانحلال من جهة، والدفع بالأفكار الإيجابية لتؤدي مهمتها.

المطلب الثاني: الاستعمار، القابلية للاستعمار والأمراض المرتبطة بهما.

لا ينفصل حديث بن نبي عن الاستعمار إلا مقرونا بالقابلية للاستعمار، فهذا يستدعي ذاك، فالاستعمار عند مالك بن نبي هو نتيجة حتمية لما صار إليه إنسان ما بعد الموحدين، ووقوع هذا الإنسان تحت طائلة الاستعمار لم يكن سوى مسألة ارتبطت بمجموعة من الظروف، وكلها لم يكن لهذا الإنسان دور في تهيئتها سوى من جهة ما أبداه من تقبل كل ما سيحل به، كان موعد الوقوع تحت سلطان المحتل مسألة يحددها المحتل نفسه، حتى إذا تهيأت له الظروف أنجز مهمته بكل أريحية.

لم يكن من شأن الاستعمار أن يكتفي بالاستيلاء على المتاع الزهيد الذي كان بيد هذا الإنسان، فهذا الإنسان قد توقف منذ زمن بعيد حتى عن إنتاج أبسط احتياجاته، بل إن الاستعمار سلط على هذا الإنسان فوق ذلك كل صور التنكيل النفسي والجسدي[100]، بل وعمل بكل قواه على طمس معالم آدميته، ويمكن إجمال الطرق التي وظفها الاستعمار في التمكين لخططه في الآتي:

أ- **تدمير المستعمَر نفسيا والإشادة بأمراضه:** لا يستقيم أمر الاستعمار ولا يدوم إلا بابتداع طرق جديدة تمكنه من الاستمرار في الهيمنة على المستعمر وإهانته بشتى الطرق، "وإنه لا حاجة بنا إلى القول دائما بأن الاستعمار ولا شك هو الشر، وإنه صورته المجسمة على الأرض، فنحن في هذه النقطة متفقون"[101]، لكن المؤكد في المقابل أنه "ليس ينجو من الاستعمار وأجناده، إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار "[102]، "وإنها لشرعة السماء،

---

[99] المصدر نفسه ، ص 150.

[100] طال التعذيب النفسي والجسدي الإنسان الجزائري بالجملة، وقد كان بن نبي واحدا من ضحاياه، وهناك صور ونماذج كثيرة، وحالة عبد الحليم بن سماية شاهدة على ذلك.

[101] مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص 64.

[102] شروط النهضة، ص31.

ISSN : 2410-1818

غير نفسك تغير التاريخ"[103]، في هذا الشأن يعمل الاستعمار على الدوام على تدمير نفسية المستعمَر على الوجه الذي يجعله يشعر بالنقص الذي ينتهي به إلى التشاؤم على المستوى النفسي، ويشل إرادته وفاعليته على المستوى الاجتماعي فينتهي به إلى التكديس[104]. لقد كانت للاستعمار سياسة مدروسة بعناية تهدف إلى تهديم جوهر الفرد الجزائري، ومحو عبقريته، لقد عمد إلى الانتقاص من قيمته، وتحطيم قواه الكامنة[105]، تمت محاربة المستعمَر طفلا وشابا وكهلا، تمت محاربته بحرمانه من كل شيء، ماديا ومعنويا[106]، كان يدفعه دفعا إلى احتقار ذاته والنزول بها إلى دركات الاستعباد، وفوق ذلك كان يريد أن يجعله لا يجد غضاضة في تمجيد المحتل والإشادة به، ولا يكتفي الاستعمار بهذا، بل يعمد إلى أمراض المستعمَر الاجتماعية التي كانت سببا في إخراجه من التاريخ أصلا، يعمد إليها ليظهرها وبطرق خبيثة في صورة إيجابية، ليقنعه بأن وضعه مريح، وحين ينجح المستعمِر في هذا ينتشي بالانتصار، بعد أن كسب وقتا إضافيا لينفذ خططا جديدة تستهدف مزيدا من الإذلال.

والمستعمر يوظف أساليب غاية في المكر من أجل محاربة فكرة يراها خطرا، "وإنه ينبغي لنا أن نتصور الفكرة هدفا يصوب إليه الاستعمار مدفعيته: فالفكرة هدف يمكن إصابته، منفصلة أو متصلة بصاحبها"[107]. وللمستعمر في هذا طرق مختلفة[108]، فقد يعمد المستعمر إلى صرف عموم الشعب عن فكرة ما بإطلاق العنان لفكرة مخالفة ليوقع الشقاق بين الإخوة لتفريقهم، وقد يوعز بإثارة جدال تافه لا يقصد منه إلا الإلهاء[109].

---

[103] المصدر نفسه ، ص 32.

[104] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة. دار الفكر، دمشق:1420هـ/ 2000م، ص15.

[105] شروط النهضة ، ص146.

[106] المصدر نفسه، ص147.

[107] المصدر نفسه، ص50

[108] للتوسع في هذا، انظر: الصراع الفكري ص 152- 155.

[109] من بين موضوعات الجدال التي تحدث عنها بن نبي وضربها مثالا لمكر المستعمر لو وقعت : التساؤل عن الاستعمار هل هو ذكر أم أنثى؟، حيث قال:" ونحن إذا ما تورطنا في الميتافيزيقا، يمكن أن نتجادل في جنس الاستعمار، هل هو رجل أم أنثى؟ ولو أن هذا قد وقع فإنني على يقين أن الاستعمار سوف يرينا عورته كرجل مرة، وأخرى عورته كأنثى، ثم يتركنا في غينا هائمين" الصراع الفكري، ص65، 66.

ISSN : 2410-1818

وقد يعمد إلى تغليب فئة على فئة، لكنه في كل الأحوال سينتصر لمن تقدم له خدمة أكبر، ينطبق هذا على ما كانت الطرق الصوفية تتلقاه من مساندة من الاستعمار، حيث كان يتم التسويق لها على أنها تمثل الثقافة الإسلامية الأصيلة، في الوقت الذي يمكن القول بأنها أصبحت تمثل خلاصة ما بلغه إنسان ما بعد الموحدين من ترهل فكري وثقافي. في المقابل لا يتوقف المستعمِر على تشويه الأفكار التي تهدد مستقبله، تلك الأفكار التي يمكن أن تثير القلق في نفسية المستعمَر وتدفعه إلى مراجعة وضعه، إذ لا يسمح بظهور مثل هذه الأفكار أصلا، وإن حصل ونجحت فكرة في الإفلات من رقابته فإنه سرعان ما يحاصرها، ويظهرها في صورة الفكرة المخالفة لثقافة الشعب[110]، إنه لا يكتفي بهذا، بل يلجأ إلى إنهاء الفكرة بإنهاء صاحبها[111].

ب- **محاربة كل محاولة للنهوض:** لا يدخر المستعمر جهدا في منع كل محاولة للنهوض، ومن أوضح الأساليب التي طبقها منع أبناء المستعمرات من اكتساب تعليم جيد، حيث عمل المستعمر على إنجاز هذه المهمة بطريقتين، الأولى تقوم على وضع العراقيل أمام كل من يرغب في تحصيل العلوم من أبناء المستعمرات، وإن حدث وسمح بشيء من هذا فغالبا ما يكون السماح بشيء يسير من العلوم ويكون التوجيه إلى غير النافع منها، أو إلى تلك التي ترسخ التبعية للمستعمر. والثانية تكون بإخضاع فئة الشباب الراغب في التعلم إلى المناهج التي تفرضها المدرسة الاستعمارية، ليحقق غرضه في النهاية، إما تخريج المستعمَر أو القابل للاستعمار.

هذه النظرة الثاقبة لمالك بن نبي تبين لنا أن الاستعمار يوظف مختلف الوسائل للإبقاء عن هيمنته، وتعطيل أي فكرة يمكن أن تحرر الإنسان وتؤهله ليكون حرا من القابلية للاستعمار أو الاستعمار. غير أن الاستعمار كان له شق إيجابي في منظور بن نبي، فالاستعمار وإن كان خلع علينا بابنا، وزعزع دارنا، وسلب من أشياء ثمينة، وأخذ من حريتنا وسيادتنا وكرامتنا، ومع هذا ينبغي أن نعترف بأنه أيقظ الشعب الذي استسلم لنوم عميق، وقد عودنا التاريخ أن كل شعب يستسلم للنوم، فإن الله يبعث عليه سوطا يوقظه[112].

بهذه الصورة يتعاطى المستعمِر مع المستعمَر، لكنه في النهاية لا ينجح في مهمته إلا إذا استغل القابلية للاستعمار، وعلى على استمرار هذه القابلية بكل ما أوتي من قوة وحيلة.

---

[110] يمثل بن نبي لهذا بما وقع مع كتابه: شروط النهضة ، حيث لم يسلم حتى ممن يفترض أن يكونوا سندا له.

[111] تناول مالك بن نبي هذه المأساة في كتابه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة بشيء من التفصيل، وتناول في كتاب العفن تجربته الشخصية تحديدا، تلك التجربة التي كانت قاسية جدا، ومؤلمة جدا.

[112] المصدر نفسه، ص150.

ISSN : 2410-1818

المطلب الثالث: خمود الفكرة الدينية الباعثة

إذا كانت الحضارة عند بن نبي تدين للفكرة في ظهورها، فإنها تدين لها في استمرارها أيضا، فالفكرة شأنها شأن الكائن الحي، يتأثر بالمحيط الذي يحيا في وسطه سلبا وإيجابا، ولما كان الأمر كذلك، فإن الفكرة قد تتوقف عن أداء دورها، وقد تتراجع وتنكفئ على نفسها، وقد تنسحب فاسحة المجال للغريزة، يحدث هذا عندما تضعف الرقابة الروحية، " ومن الطبيعي أن الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة، وإنما هي تنطلق بقدر ما تضعف سلطة الروح"[113]، إن التدهور الذي يلحق أي حضارة ينبغي أن نلتمس أسبابه العميقة في ذلك المرض الاجتماعي الذي يبدأ بالتسلل إلى الحضارة دون أن تكون آثاره محسوسة." وبهذا تواصل الغريزة المكبوحة الجماح بيد الفكرة الدينية سعيها إلى الانطلاق والتحرر وتستعيد الطبيعة غلبتها على الفرد وعلى المجتمع شيئا فشيئا. وعندما يبلغ هذا التحرر تمامه، يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة. طور الغريزة التي تكشف عن وجهها تماما، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماما في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ وبذلك تتم دورة في الحضارة"[114]. في هذه المرحلة يصبح الإنسان بلا شك مؤهلا ليكون في حكم غيره.

[113] المصدر نفسه، ص69.

[114] المصدر نفسه، ص69.

ISSN : 2410-1818

الخاتمة:

تبين لنا من خلال هذه الرحلة القصيرة مع مالك بن نبي، أن الحيز الذي شغله الإنسان في تفكيره كان كبيرا، لا يعدله إلا الحيز الذي شغله المفهوم المركزي الآخر، ونعني به مفهوم الحضارة، وليس ذلك غريبا، فالإنسان هو الوحيد من الموجودات المكلف بعمارة الأرض، وتسخيرها لبناء حضارته. لقد تناول مالك بن نبي معضلة الإنسان حين يصاب بالفتور، بتحليل نفسي عميق، لينتقل إلى تناول معضلته حين يؤدي فتوره إلى انطوائية وانعزالية مخيفة، يفقد بموجبها قيمته الاجتماعية، تناول هذه المعضلة بمنهجية عالم الاجتماع المتمرس، ليكشف عن سر هذا كله، فيبين أن مكمن هذا مرجعه إلى الفكرة، حضورا وغيابا، وضوحا وغموضا، حياة وموتا. حضور الفكرة الحية الناصعة يدفع بالإنسان إلى الصدارة، وبناء حضارة، غياب الفكرة أو عدم وضوحها يودي بالإنسان إلى الخسارة، وهو في هذه الحال إما مستعمر أو قابل للاستعمار ينتظر مصيره، إن علاقة الإنسان بالفكرة هي التي تحدد موقعه في العالم، والمسلم في هذا العصر مؤمل منه أن يعود إلى منابع ذاته، ويستعيد علاقته بالفكرة التي أخرجت حضارته أول الأمر، فهي التي تمنحه قوة الحركة وتعطي لحياته معنى، بهذه الفكرة يستعيد توازنه النفسي والاجتماعي، وتعيده إلى قلب حركة التاريخ، الذي بين أن الإنسان ليبني حضارة لابد له من دين أو رسالة تفتح له أبواب السماء، ليتلقى منها الهداية والرشد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ISSN : 2410-1818

المصادر:

1- القرآن الكريم.
2- الحديث النبوي.
3- مالك بن نبي، شروط النهضة(1948)، دار الفكر، دمشق: 1406هـ/ 1986م.
4- ========وجهة العالم الإسلامي(1956)، دار الفكر، دمشق: 1423هـ/ 2002م.
5- ======== مشكلة الثقافة(1958). دار الفكر، دمشق:1420هـ/ 2000م.
6- ===الصراع الفكري في البلاد المستعمرة(1959)، ط3، دار الفكر، دمشق: 1408هـ/1988م.
7- ======== تأملات(1961)، دار الفكر، دمشق: 2002 هـ/ 1423م.
8- ======== ميلاد مجتمع(1962). ط3، دار الفكر، دمشق: هـ/1986م.
9- =====مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي(1970). دار الفكر، دمشق: 2002 هـ/ 1423م.
10- ======= القضايا الكبرى. دار الفكر، دمشق: 1420هـ/ 2000م

ISSN : 2410-1818

خطة البحث:

تمهيد.

المبحث الأول: الإنسان والحضارة.

المطلب الأول: الإنسان عند مالك بن نبي.

المطلب الثاني: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي.

المبحث الثاني: الإنسان ومساره في مضمار الحضارة عند مالك بن نبي.

المطلب الأول: إنسان ما قبل الحضارة(إنسان الفطرة):

المطلب الثاني: إنسان الحضارة وخصائصه.

المطلب الثالث: إنسان ما بعد الحضارة أو الإنسان القابل للاستعمار.

المبحث الثالث: طريق الإنسان إلى الحضارة.

تمهيد: معيار التحضر.

المطلب الأول: تغيير ما بالنفس.

أ- أولوية الفكرة.

ب- تقديم الواجب على الحق.

ت- الفعالية.

المطلب الثاني: التوجيه الأخلاقي و التوجيه الجمالي أو توجيه الثقافة.

أ- التوجيه الأخلاقي.

ب- التوجيه الجمالي:

ISSN : 2410-1818

المطلب الثالث: توجيه العمل ورأس المال.

المطب الرابع: إعادة الاعتبار إلى التراب والوقت.

أ- التراب.

ب- الوقت.

المطلب الخامس: الفكرة الدينية.

المبحث الرابع: صعوبات في طريق الدخول في الحضارة.

تمهيد: الإنسان بين قهر الاستعمار ومرض القابلية للاستعمار.

المطلب الأول: الأفكار الميتة والأفكار المميتة.

المطلب الثاني: الاستعمار، القابلية للاستعمار والأمراض المرتبطة بهما.

أ- تدمير المستعمَر نفسيا والإشادة بأمراضه.

ب- محاربة كل محاولة للنهوض.

ت- المطلب الثالث: خمود الفكرة الدينية الباعثة.

ث- الخاتمة.